عبد الرحمن في مواجهة الثورات والفتن

أولاً - تعقب يوسف الفهري والصميل:

فرَّ يوسف الفهري عقب موقعة المسارة صوب طليطلة، وفرّ الصميل إلى جيان معقل قومه، وقام يوسف الفهري بحشد أنصاره في طليطلة، بمعاونة عامله عليها هشام بن عزرة الفهري، وانضم إليه الصميل بمن حشد من المضرية، ثم سارا في قواتهما إلى جيان، ثم إلى البيرة (غرناطة)، واجتمع أهل هذه الأنحاء حول يوسف، ونزل يوسف بغرناطة يتأهب لمحاربة عبد الرحمن، لكن ما كاد يستقر في البيرة، حتّى بادر عبد الرحمن بالسير إليه، وترك حماية قرطبة لخليفه وقائده أبي عثمان، ولما علم يوسف بمسيره إليه، بعث ابنه عبد الرحمن في بعض قواته إلى قرطبة، فاقتحمها وأسرَ أبا عثمان ونفراً من أهل عبد الرحمن وحريمه، ثم غادرها في الحال؛ خشية المفاجأة، لكن عبد الرحمن الأموي لم يلوِ في طريقه على شيء، وقصد إلى البيرة توًا، وحاصر يوسف والصميل.

فلما شعرا بأن مقاومتهما لا فائدة منها، فاوضاه في الصلح والتسليم بالأمر له، ونبذ كل دعوى في الولاية والسلطة، على أن يوفيهما في النفس والمال والأهل، وأن يؤمن حلفاءهم وأصدقاءهم جميعًا، وأن يسمح لهما بسكنى قرطبة تحت رعايته ورقابته، فأجابهما عبد الرحمن إلى الصلح على ذلك، وعلى أن يقدم يوسف ولديه عبد الرحمن ومحمداً أبا الأسود رهينةً لديه، يعتقلهما في قصر قرطبة برفقٍ وإكرام؛ حتى تطمئن النفوس وتستقر الأُمور، وتمّ عقد الصلح بين الفريقين في (صفر سنة ١٣٩هـ)، وأفرج عن أبي عثمان وباقي الأسرى الذين أسرهم، وتصافى الفريقان، وقفل يوسف والصميل مع عبد الرحمن عائدين إلى قرطبة، وانفضَّ عنبرهما، ونزل يوسف بشرقي قرطبة في قصر الحر الثقفي أحد

الولاة السابقين، ونزل الصميل بداره بالربض (الضاحية) وأبدى عبد الرحمن نحوهما عطفًا وليناً، وهو مع ذلك يشدد عليهما الرقابة، ويحرص على تجريدهما من كل سلطة وقوة، وكان في قرطبة فل من عصبة يوسف وأنصاره السابقين، الذين نالوا على يديه جاهًا وحظوة، يتطلعون إلى العهد السابق، ويلومون يوسف على تسليمه واستكانته، ويُحرضونه على استعادة مركزه وسلطانه.

وكان يوسف من جهته يشعر بانه في شبه اعتقال، وأن عبد الرحمن يُضيق الخناق عليه، ويُؤلب عليه صنائعه، ينازعونه في أملاكه وأمواله لدى القضاء، والقضاء يميل إلى غبنه وإعناته، حتى ذهب معظم أملاكه، هو يشعر أن عبد الرحمن من وراء ذلك الاضطهاد[١].

عندئذ قرر يوسف الفهري الفرار، وكاتبَ أنصاره في ماردة وطليطلة، ثم فرّ إلى ماردة، وكان بها معظم أهله وأصهاره سنة (١٤١هـ)، وهناك حشد أنصاره من العرب والبربر، حتى اجتمع له زُهاء عشرين ألفًا، وتخلّف الصميل ولم يوافقه، فقبض عليه عبد الرحمن وألقاه في غيابة السجن بتهمة التحريض والتآمر.

وفيما كان عبد الرحمن يحشد جنوده، سار يوسف بقواته إلى أشبيلة، وعليها عبد الملك بن عمر بن مروان المعروف بالمرواني، فحاصره في إشبيلية، حتى أتاه ولده عبد الله بالمدد.

وقد وقعت بينهما معارك عنيفة قتل فيها كثير من الفريقين، وارتدّ يوسف منهزمًا بفلوله، وكان عبد الرحمن الأموي يُرابط عندئذ بقواته في حصن المدوّر، الواقع على مقربة من غربي قرطبة، على نهر الوادي الكبير، فوافته الأخبار بهزيمة يوسف وفراره، فتوقف عن مطاردته، وسار يوسف إلى طليطلة، ولبث يتردد في أنحائهما عدة أشهر، وهو يحاول أن يُنظم قواته مرّة أُخرى، ولكن بعض الخونة من أنصاره أو مواليه ائتمروا به، واغتالوه ذات يوم على مقربة من طليطلة،

---

(١) «نفح الطيب» للمقرئ (جـ٢، ص٦٦).

وحملوا رأسه إلى عبد الرحمن في قرطبة سنة (١٤٢هـ)، والظاهر أن هذه الجريمة لم تكن بعيدة عن وحي عبد الرحمن، وانتهت بذلك حياة يوسف الحافلة المضطربة، وأمن عبد الرحمن شرّه وخطره، وقتل ابنه عبد الرحمن المعتقل لديه، ورفع رأسيهما فوق الرماح أمام القصر ليلقي الرعب في قلوب الخوارج والمخالفين[١].

أما ولد يوسف الآخر وهو محمد بن الأسود، فقد استطاع أن يفرَّ من سجنه، وقصد تواً إلى طليطلة معقل عصبة أبيه وتحصّن بها، فبعث عبد الرحمن في أثره جيشًا بقيادة تمّام بن علقمة وعينه والياً لطليطلة، فحاصرها حتى سلمت، وأسر محمد بن يوسف ثانية، وجيء به إلى قرطبة، واستولت جنود عبد الرحمن على طليطلة في (ذي الحجة سنة ١٤٢هـ) وسحق بذلك وكر الثورة الفهرية، وزجّ محمد إلى السجن ثانية، وادّعى العمى حتى استطاع الفرار بعد محنة طويلة، وعاد يرفع علم الثورة فيما بعد. وتمكن أخوه الأصغر القاسم بن يوسف أن يفر من طليطلة مُتنكراً قبل سقوطها، وأما الصميل، فلبث يرسف في سجنه مدى أسابيع أخرى، حتى دسَّ عليه عبد الرحمن من قتله داخل السجن خنقًا في أواخر سنة (١٤٢هـ)[٢].

انتهت ثورة يوسف الفهري والصميل والتي تعد من أخطر مراحل الاضطراب التي واجهها عبد الرحمن الداخل، حيث واجه يوسف الفهري صاحب الشخصية القوية والزعيم المتميز الذي استطاع أن يحكم الأندلس زهاء عشرة أعوام في ظروف صعبة شاقة، وأن يسهر على وحدتها وسلامة قوتها، وأن يدرأ عنها خطر نصارى الشمال والفرنج، ولما فقد يوسف رياسة الأندلس في يوم المسارة، لبث مع ذلك أخطر قوة تُهدد طالع عبد الرحمن الأموي وسلطانه، وظلت روح الثورة والمعارضة عدة أعوام أخرى.

---

(١) «البيان المغرب» (جـ٢، ص٥١).

(٢) «الحلة السيراء» لابن الآبار (ص٥٠)، وانظر «البيان المغرب» (جـ٢، ص٥١).

أما الرجل الثاني الذي تخلّص منه عبد الرحمن الداخل، فهو الصّميل، فقد كان الصميل زعيمًا قويّ العصبية، ذكي قويّ، نافذ الرأي بين أصحابه، قويّ الكلمة عند إصدارها، وافر الدهاء في مواجهة الأمراء والحكماء، كثير المكر والتآمر، يُخشى بأسه حين ا لباس، ويُخشى وحيه وغمزه حين التآمر والتخطيط لعدوه.

هذان الرجلان كانا عقبة - وأي عقبة - في طريق طموح عبد الرحمن الداخل وحلمه في تكوين دولة إسلامية قوية في الأندلس، يُعيد من خلالها مجد بني أمية الغابر، فقد كان ذهاب يوسف الفهري والصميل خطوة واسعة على الطرق وخلو الميدان منهما فوزًا ساحقًا لطموح هذا الصقر الأموي الداخل، وخطوة هائلة في طريق استقرار إمارته وتوطدها.

ثانيًا - أول الخوارج في إشبيلية:

كانت أول وثبة من الخوارج بعد مصرع يوسف الفهري والصميل، قد جاءت من القاسم بن يوسف، وحليفه رزق بن النعمان الغساني، وكان القاسم حينما فرَّ من طليطلة - كما قدمنا - قد سار إلى الجزيرة الخضراء، والتجأ إلى شيخها رزق ابن النعمان صديق أبيه، وحشد حوله جمعًا من الأنصار والمرتزقة، واستولى بمعونة حليفه على شذونة، ثم سارا في قواتهما إلى إشبيلية، ولم تكن بها قوة تدافع عنها، فاستوليا عليها دون مشقة، فبادر عبد الرحمن الداخل في قواته إلى أشبيلية، ونشبت بينه وبين هؤلاء الخوارج معركة عنيفة، قُتل فيها رزق بن النعمان وفرّق جنده، ودخل عبد الرحمن إشبيلية ظافرًا، وذلك في أواخر سنة (١٤٣هـ)، أما القاسم فالتجأ بقواته إلى شذونة، وبعث عبد الرحمن في أثره تمامًا والي طُليطلة، فطارده حتى أسره وفرّق جنده وشتت قواته.

ثالثًا - ثورة زعيم اليمانية في إشبيلية:

ظلّ عبد الرحمن بإشبيلية بضعة أشهر إلى أن ظن أنها استقرت، ولكنه ما كاد أن يُغادرها إلى قرطبة حتى نشبت فيها ثورة جديدة بقيادة زعيم اليمانية

عبد الغافر اليماني، فقد استولى عبد الغافر على ما جاور قرطبة من الأنحاء، وكثرت جموعه ولا سيما من البربر، وأصبح يهدد قرطبة، فخرج عبد الرحمن لقتاله،والتقيا بوادي قيس على مقربة من قرطبة، فاستمال عبد الرحمن حلفاء عبد الغافر من البربر، وانفضّ عنه جندهم، واقتتل الفريقان، فهُزِم عبد الغافر هزيمة شديدة، وفرَّ إلى لَقَنت، وطارد عبد الرحمن جنده حتى قُتل منهم أُلوفًا عديدة سنة (١٤٤هـ).

رابعًا - ثورة الحضرمي في أشبيلية:

هذه المواجهة كانت أشدّ صعوبة من ثورة اليماني، فقد رفع لواءها من بعد عبد الغافر اليماني كبير زعماء أشبيلية، وهو: حيوة بن ملامس الحرمي، فقد تغلّب على إشبيلية وإستجة، وكثير من نواحي الغرب، والتفّ حوله أهل هذه الأنحاء واستفحل أمره، فسار إليه عبد الرحمن، ونشبت بينهما معارك عنيفة على مدى أيام، ودافع الثوار عن أنفسهم ببسالة شديدة، حتى كادت الدائرة تدور على عبد الرحمن، ولكن التفرق دبّ أخيرًا إلى صفوف الثوار، ولحقهم الإعياء والملل، فوقعت عليهم الهزيمة، وفرّ زعيمهم حيوة، وكتب إلى عبد الرحمن يلتمس منه العفو والأمان سنة (١٤٤هـ - ٧٦١م)[١].

خامسًا - ثورة الفهري في طليطلة:

ما إن فرّ حيوة الحضرمي، حتى نشبت الثورة في طليطلة، وكان عبد الرحمن قد اختار لولايتها تمام بن علقمة، ثم عينه حاجبًا له فكان أول حجابه، وخلفه في ولاية طليطلة حبيب بن عبد الملك، وكانت المدينة ما تزال تضطرم بعناصر الثورة، وفيها كثير من أنصار الفهرية، فلم يلبث أن قام زعيمهم هشام بن عزرة الفهري، ولد عذرة أمير الأندلس السابق، وأعلن الثورة واعتصم بالمدينة، فسار إليه عبد الرحمن وحاصره مدى أشهر، حتى اضطر إلى طلب الصلح، وقدم ولده

---

(١) «البيان المغرب» (جـ٢، ص٥٣).

رهينة بحسن طاعته، فأجابه عبد الرحمن إلى طلبه، وآثر أن يهادنه مؤقتًا، ولكنه ما كاد يصل إلى قرطبة حتى عاد هشام إلى الثورة، فارتدّ إليه عبد الرحمن؛ ليُعاقبه على نكثه، وحاصره ثانيةً، وقتل ابنه وأطلق رأسه بالمنجنيق داخل الأسوار، ولكنه لم يظفر بحمل الثائر على التسليم، فعاد إلى قرطبة لينظم جيشه، ولكنه لم يستطع أن يعود توًا، وكان لذلك سبب بالغ الخطورة يتطلب كل ما يستطيع إعداده من قوة ومن رباط.

سادسًا - ثورة العلاء اليحصبي في باجه:

كان الخطر الداهم الذي منع عبد الرحمن من العودة إلى طليطلة هو داعية من خصوم بني أمية وأعدائهم هو العلاء بن مغيث اليحصبي، وكان من زعماء باجة، وله بها رياسة وعصبية، فقد كاتب هذا الرجل أبا جعفر المنصور، واتصل برسله في أفريقية، واستصدر منه تفويضًا (سجلاً) بولايته وحكمه للأندلس، ثم ارتدّ إلى الأندلس، وعاد إلى باجة في قوة كبيرة، ودعا لبني العباس، ورفع العلم الأسود، وأعلن أنه قد عُين أميرًا للأندلس من قِبَل المنصور سنة (١٤٦هـ)[١].

وكان الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور يُحاول بهذه الدعوة أن يُحطم مشاريع بني أُمية فيما وراء البحر، وأن يبسط سلطانه الأسمى على الأندلس، وقد رأينا أن عبد الرحمن بن حبيب المتغلب على إفريقية، دعا لبني العباس حينما انهار سلطان بني أُمية، وكاتب الخليفة العباسي، فأقره على حكم إفريقية، فكانت إفريقية تابعة لبني العباس من الوجهة النظرية، وهكذا كان شأن العلاء بن مغيث؛ فقد رأى أن يستظل في ثورته بالدعوة العباسية؛ لكي يُسبغ عليها لونًا من الشرعية، ولم يكن للخليفة العباسي اعتراض على محاولة لا يتحمل تبعتها من الوجهة المادية، وإن كان يعضدها من الناحية المعنوية؛ ولذلك فقد أرسل

(١) «البيان المغرب» (جـ٢، ص٥٤).

بالفعل سجلاً إلى العلاء بما طلب، وكان بعض الزعماء الخوارج على يوسف بن عبد الرحمن الفهري قد استظلوا بالدعوة العباسية، كما أن هؤلاء الخوارج على عبد الرحمن الداخل سيشهدون هذه الدعوة في حوادث وفتن أخرى[١].

اشتعلت الثورة في باجة وما حولها، وهرعت القبائل والأحزاب المختلفة إلى الانضواء تحت اللواء الأسود (لواء العباسيين)، وكان من هؤلاء الفهرية واليمنية وجند مصر.

استفحل أمر أبو العلاء وكثر جمعه، وانضم إليه أميّة بن قطن وأصحابه، وأعلن غياث بن علقمة الثورة في مدينة أخرى هي شذونة مُخالفًا للعلاء.

خرج عبد الرحمن من قرطبة في جمع هائل من قواته، أما شذونة فقد بعث إليها مولاه بدر في بعض من قواته، فحاصرها بدر حتى أذعن غياث لطلب الصلح، وسار عبد الرحمن إلى قرمونة، ما بين قرطبة وإشبيلية؛ نظرًا لمتاعبها، واتخذ موقف الدفاع، فسار إليه العلاء في جموعه، وهاجم قرمونة مرارًا، وحاصرها مدى أسابيع حتى وهنت قوى جنده، وعندئذ انقلب عبد الرحمن من الدفاع إلى الهجوم، وداهم العلاء في صفوة جنده، ونشبت بين الفريقين معارك شديدة مدى أيام، حتى هُزم العلاء ومُزق جنده، وقُتل منهم آلاف عديدة، وكان العلاء نفسه بين القتلى، وأُسِرَ ابن قطن.

وجمع عبد الرحمن رؤوس الزعماء والقادة من خصومه، ورقمها بأسمائهم، وحملها بعض رسله إلى القيروان، فأُلقيت في أسواقها سرًا، وأثارت هناك دهشة وارتياعًا، ووُضعت رأس العلاء في سفط، ومعها اللواء الأسود، وسجل المنصور للعلاء، وحمله بعض التجار الثقاة إلى مكة، حيث كان المنصور يؤدّي فريضة الحج في العام التالي سنة (١٤٧هـ)، وأُلقي أمام سُرادق المنصور، وحُمل إليه، فارتاع لرؤيته، وقال ما معناه: «ما في هذا الشيطان مطمح، فالحمد لله الذي حيّل بيننا وبينه البحر»[٢].

---

(١) «تاريخ ابن خلدون» (جـ٤، ص١٢٢).

(٢) «نفح الطيب» (جـ١، ص١٥٦)، و«البيان المغرب» (جـ٢، ص٥٤).

كان إخماد هذه الدعوة انتصاراً من نوع آخر، ويُعد انتصاراً مهماً؛ لأن هذه الدعوة كانت دعوة عامة تدعمها الخلافة العباسية، فأعطتها صبغة شرعية، ولم يكُ أصلح منها لجمع خصوم عبد الرحمن جميعًا تحت لواء واحد[١].

ولما عاد عبد الرحمن إلى قرطبة كانت هناك ثورة أخرى.

سابعًا - ثورة هشام الفهري في طليطلة:

عاد عبد الرحمن إلى قرطبة، فوجد ثورة أخرى يُشعل نارها هشام الفهريّ في طليطلة، وقد استفحلت هذه الثورة، واتسع نطاقها بصورة تدعو للقلق، فأرسل عبد الرحمن قائديه بدراً وتمام بن علقمة في جيش كبير إلى طليطلة، فطوّقها وشدّد الحصار عليها حتّى ضاق أهلها ذرعًا، واضطروا إلى طلب الصُّلح، على أن يُسلموا الزعماء الثائرين، وقبضوا على هشام وعدّة من أصحابه، فأخذوا إلى قرطبة مصفدين معذبين، ثم صُلبوا بأمر عبد الرحمن، وتمّ بذلك سحق الثورة في طليطلة إلى حين، وكان ذلك في سنة (١٤٧هـ - ٧٦٤م).

ثامنًا - ثورة سعيد اليحصبي (المطري) (١٤٩ هـ - ٧٦٦م):

ثار سعيد اليحصبي المعروف بالمطري بمدينة كبَلة، مُطالبًا بثأر اليمانية الذين قُتلوا مع العلاء، فانضمت إليه جموع اليمانية حتى قوي جمعه، وكثر جنده، فسار إلى إشبيلية فاستولى عليها، وارتد عنها واليها عبد الملك بن عمر المرواني لقلة جنده، ولبث ينتظر المدد، وكانت إشبيلية مطمح لكل ثائر؛ لقربها من قرطبة؛ ولأنها لبثت مدى أعوام من أهم مراكز الثورة في الأندلس، وخرج في الوقت نفسه غياث بن علقمة اللخمي بمدينة شذونة ناكثًا لعهده، فسار عبد الرحمن أولاً إلى إشبيلية، وانقلب المطري إلى قلعة رعواق القريبة وامتنع بها؛ فحاصره عبد الرحمن وقطع علائقه مع بقية أنصاره، فلما ضاق الثائر بالحصار

---

(١) رينهارت دوزي (جـ١، ص٢٨٤).

ذرعًا حاول الخروج؛ ليشق له طريقًا بين الجيش المحاصر، ووقعت بين الفريقين معركة شديدة قُتل فيها «المطري» وارتدت فلوله إلى القلعة، وقدموا عليهم خليفة ابن مروان، فاستمر عبد الرحمن في محاصرة الخوارج، حتى أذعنوا لطلب الصلح، وسلّموا إليه قائدهم فقتله، واستولى على القلعة وهدمها، ثم سار إلى شذونة فحاصرها حتى أذعن أهلها لطلب الأمان[١].

تاسعًا - ثورة أبو الصباح بن يحيى اليحصبي سنة (١٥٠هـ):

كان أبو الصباح بن يحيى اليحصبي صديقًا لعبد الرحمن وحليفًا له، وكان زعيم اليمانية في إشبيلية يوم قدوم عبد الرحمن إلى الأندلس، فكان في طليعة من هرعوا يومئذ لتاييده ونصرته، وقاتل معه يوم المسارة، وغدا إلى جانب أبي عثمان وعبد الله بن خالد، من خاصة أعوانه وأركان دولته، ولكن عبد الرحمن كان يحقد عليه ويتوجس منه؛ لحديث نُقل عنه يوم المسارة بوجوب التخلص من عبد الرحمن بعد التخلص من يوسف الفهري، ورد الأمر إلى اليمنية[٢].

وكان عبد الرحمن قد ولاه إشبيلية، ثم عزله عنها لما ظهر من عجزه عن قمع الفتنة، فغضب أبو الصباح وأظهر الخلاف، واجتمع إليه أنصار، ورأى عبد الرحمن أن يأخذه بالحيلة والملاطفة؛ فبعث إليه تمام بن علقمة يدعوه إلى قرطبة للتفاهم، ويبذل له ما شاء من الوعود؛ فسار أبو الصباح إلى قرطبة في أربعمائة من رجاله، واستقبله عبد الرحمن بالقصر، وعاتبه على ما كان منه، فأغلظ أبو الصباح في الجواب، ولامه على النكث بوعوده له، فأمر الفتيان بقتله، فقُتل طعنًا بالخناجر، وانفضّ جمعه سنة (١٥٠هـ).

عاشرًا - ثورة البربري شقيا بن عبد الواحد:

كانت فتنة هذا الرجل من أخطر الفتن التي واجهت عبد الرحمن الداخل؛

---

(١) «دولة الإسلام في الأندلس» ع١. ص١ (ص١٦٣، ١٦٤).

(٢) «نفح الطيب» (جـ٢، ص٦٦).

حيث أنها شغلته أعوامًا عديدة، وقد نشبت هذه الثورة في شمال شرقي الأندلس بين البربر وزعيمها، ومُثير ضرامها بربريّ خطير يُدعا شقنا أو شقيا بن عبد الواحد، وأصله من بربر مكناسة، وكان فقيهًا يُعلم الصبيان، فزعم ذات يوم أنه سليل النبيّ ﷺ، ومِنْ وَلَد فاطمة والحسين، وتسمّى عبد الله بن محمد، فزاعت دعوته بين البربر في تلك المنطقة، وكانوا أكثرية بها، والخصومة بين العرب والبربر قديمة - كما عرفنا من قبل - وقد كان البربر على أتمّ الاستعداد للثورة ضد العرب دائمًا[١].

أحسّ هذا الرجل الدعي الفاطميّ أن الناس قد التفّوا حوله، وقويَ جمعه، فسار إلى شنت برية، فاستولى عليها وجعلها مركزه العام، ثم سار في جموعه غربًا، فاستولى على ماردة وقورية ومدلين، وعلى جميع المنطقة الواقعة حولها بين نهري التاجه ووادي يانه، فقويت دعوته وعظم أمره، واشتدّ بغيه وعبثه في تلك الأنحاء، وأخذ أعداء عبد الرحمن من العرب في التحرك أيضًا؛ فعهد عبد الرحمن إلى والي طليطلة أن يقمع ثورة هذا الرجل؛ فبعث إلى شنت برية جيشًا بقيادة سليمان بن عثمان، فخرج إليه الفاطمي في قواته، فهزمه هزيمة شديدة، وأسر قائده سليمان وقتله، وزاد هذا الظفر في سلطانه وبغيه، فسار إليه عبد الرحمن بنفسه في العام التالي سنة (١٥٢هـ)، واقتحم منطقة الثورة، ونشبت بينه وبين البربر وقائع عديدة ثبت فيها البربر، وامتنع الثائر بالجبال[٢].

ولم يجد عبد الرحمن نتيجة أو سبيلاً إلى مطاردته؛ فارتدّ إلى قرطبة، وبعث إلى شنت برية مولاه بدرًا؛ ليتابع القتال، فاستمر الفاطمي ممتنعًا بصحبه في الجبال، مُحاذرًا لقاء الجيش المهاجم، وعاد عبد الرحمن لقتاله بنفسه في العام التالي (١٥٤هـ)[٣].

(١) «البيان المغرب» (جـ٢، ص٥٦).

(٢) ابن الأثير (جـ٥، ص٢٢٤).

(٣) «البيان المغرب» (جـ٢، ص٥٧).

وشدد في محاصرته ومطاردته، ولكنه فشل أيضًا في إجباره على مغادرة مواقعه، ثم بعث لقتاله في العام التالي مولاه عبيد الله بن عثمان، فخرج الفاطمي للقائه واستمال جنده البربر، وبثّ الخلاف إلى صفوفه؛ فانحلّ عسكره، وأثخن فيه الفاطمي، ففرّ عبيد الله بن عثمان، واستولى الثائر على معسكره، وأسلاب جيشه، وقتل جماعة كبيرة من قادة جنده سنة (١٥٥هـ)[١].

مما سبق نجد أن حملات عبد الرحمن الداخل المتوالية فشلت في إخماد الثورة في تلك المنطقة الوعرة، فعاد عبد الرحمن بجيش جديد إلى شنت برية، ولكنه لجأ عندئذ إلى وسيلة جديدة لتمزيق شمل الثوار، فاستقدم إليه كبير البربر في شرق الأندلس واسمه هلال الميديوني، وأقرّه على ما بيده من الأنحاء، وأصدر له عهدًا بولاية الأنحاء التي غلب عليها الفاطمي، وفوّض إليه أمر استخلاصها منه، وكان لتلك الحيلة أثرها في بثّ الخلاف إلى صفوف البربر؛ فانفضّ عن الفاطمي كثيرٌ من أنصاره، واضطر أن ينسحب من «شنت برية» إلى الشمال؛ ليعتصم بالجبال مرّة أُخرى.

وبينما عبد الرحمن يجدّ في مطاردته، ويقتحم معاقله وضياعه، ويُنكل بأنصاره حيثما وجدوا، إذ بلغه نشوب الثورة في إشبيلية ولبلة وباجة، وقوامها اليمنية من عصبة أبي الصباح وأنصاره، وكان على رأس الثورة في إشبيلية زعيمها القديم حيوة بن ملامس الحضرمي، وفي باجة عبد الغافر اليحصبي، وفي لبلة عمر بن طالوت، وهما من أبناء عمومه أبي الصباح، وانضمّ إليهم كثيرٌ من البربر، فحشد الثلاثة جموعهم واعتزموا السير إلى قرطبة في غيبة عبد الرحمن، وكان قد استخلف عليها مولاه بدرًا، وقيل كان يستخلف عليها ولده سليمان[٢].

---

(١) المصدر السابق، وانظر ابن خلدون (جـ٤، ص١٢٣).

(٢) ابن الأثير (جـ٤، ص٣).

وهلك معظم الزعماء الثائرين، وفرّ عبد الغافر وركب البحر إلى المشرق، وقرن عبد الرحمن نصره بعملية دموية كبرى، عندما قبض على ثلاثين من وجهاء إشبيلية ممن كانوا في جيشه وأمر بهم فأُعدموا سنة (١٥٧هـ - ١٥٨هـ).

كانت هذه الفتنة سبباً في انشغال عبد الرحمن عن الفاطمي، ولكنه عاد في العام التالي إلى مطاردته؛ فالتجأ الفاطمي الثائر إلى الجبال كعادته، ولم يجد عبد الرحمن سبيلاً إلى اللحاق به، فغزا قورية وأثخن في تلك الأنحاء، وكان أمر الفاطمي قد ضعُف خلال هذه الأعوام، وتضاءل جمعه، ولكنه لبث يُسيطر على شنت برية وماردة، ولبثت دعوته خطراً يُهدد سلام الأندلس واستقراره، فوجّه عبد الرحمن لقتاله في العام التالي حملة قويّة أخرى بقيادة تمام بن علقمة، وعبيد الله بن عثمان، فلقيهما الفاطمي ووقعت بينهما معارك شديدة، رجحت بها كفته، ثم التجأ إلى حصن شبطران بقرب «شنت برية»، فحاصره تمام وعبيد الله عدة أشهر، ولكنهما لم يُحققا شيئًا يُذكر، ولم يظفرا منه بطائل، فعاد إلى قرطبة، وخرج الفاطمي على أثر عودتهما إلى «شنت برية» ونزل بقرية من أعمالها تُسمى قرية العيون، وهنالك ائتمر به اثنان من أصحابه هما أبو معن داود ابن هلال وكنانة بن سعيد، وانفضّا عليه ذات يوم وقتلاه، واحتزا رأسه وحملاها إلى عبد الرحمن في قرطبة، وبذلك انفضّت جموعه، وتفرّق جنده وأتباعه، وخبَتْ ثورته بعد أن لبثت زُهاء عشرة أعوام تحمل الدمار والسفك إلى شرقي الأندلس وغربها، وتُهدد سلطان عبد الرحمن بشرّ العواقب، وحققت الخيانة في لحظة واحدة ما لم تُحققه الحملات والبعوث المتعاقبة في أعوام طويلة[1].

ولعلّ هذه الضربة الناجحة لم تكن بمعزل عن فكر عبد الرحمن الداخل أو وحيه، وقد كانت الخيانة والجريمة من بعض أسلحته في مقارعة الخصوم، عندما

(١) «دولة الإسلام في الأندلس» ع١. ق١ (ص١٦٧).

يفشل الميدان العسكري في تحقيق الهدف، وكانت الخيانة والجريمة تحققان له في بعض الأحيان من الظفر ما لا تُحققه أي الوسائل، وكان مصرع الفاطميّ البربريّ شقيان بن عبد الواحد أو عبد الله بن محمد – كما أطلق على نفسه – وانتهاء فتنته وثورته التي استمرت لوقت طويل في سنة (١٦٠ هـ – ٧٧٦م)[١].

(١) ابن الأثير (جـ٦، ص١٧) .

موقعة ردنسقال (باب شزروا)

بينما كان عبد الرحمن مشغولاً بقمع الثورات والفتن، كانت هناك ثمّة حوادث مهمة أخرى تقع في شمال الأندلس، ففي سنة (١٥٧هـ - ٧٧٤م)، ثار سليمان بن يقظان الكلبي، والي برشلونة وجيرونه، و الحسين بن يحيى الأنصاري والي سرقسطة، وهو من ولد سعد بن عبادة، وتحالف على قتال عبد الرحمن وخلعه، وكان استمرار الثورة في الجنوب، وانشغال عبد الرحمن الدائم بقمعها، وطبيعة الشمال الجبلية ومنعته، مما يذكي عوامل الثورة في الولايات الشمالية، ويشجع مشاريع الزعماء الخوارج، وكان عبد الرحمن يشتغل يومئذ بمقاتلة الفاطمي، فأرسل إلى الشمال جيشًا بقيادة ثعلبة بن عبيد الجذامي، فهزمه سليمان بن يقظان وأسره، وتفرق جيشه (١٥٨ هـ - ٧٧٥م).

واستفحل أمر الثورة في الشمال، لكن سليمان بن يقظان وأعوانه لم يطمئنوا إلى ذلك النصر المؤقت، وهم الذين يعرفون عزيمة عبد الرحمن الداخل وبأسه وردعة انتقامه، وجاء تفكيرهم بالاستعانة بملك الفرنج، فسار سليمان بن يقظان مع نفر من صحبه الخوارج، إلى لقاء شارلمان في (ربيع سنة ٧٧٧م - ١٦٠هـ)، وكان يومئذ يُقيم بلاطه في مدينة پادربون من أعمال وستفاليا (شمال غرب ألمانيا)، ويعقد الجمعية الكبرى، حيث كانت جموع السكسونيين المغلوبة تعمّد للنصرانية، بعد أن شتت شارلمان شملهم وفرّ رعيمهم ڤيدوكنت، في هذه الأثناء وفد عليه سليمان بن يقظان وصحبه من قبل أمير قرطبة، ولا سيما سَرَقُسطة، وأخيرًا بأن يسلمه أسيره القائد ثعلبة بن عبيد، وكان مع ابن يقظان (أو ابن الأعرابي كما يسميه المؤرخون اللاتينيون)، كان معه ولد ليوسف الفهري حاكم الأندلس السابق، جاء ومعه صهره؛ ليسعيا كذلك لخلع عبد الرحمن.

وعند ابن الأثير[١]، وابن خلدون[٢]: أن سليمان بن يقظان (الأعرابي) وحلفائه استدعى شارلمان ملك الفرنج إلى بلاد المسلمين، ووعده بتسليم برشلونة أو سرقسطة[٣]. وأعلنوا خضوعهم لملك الفرنج، وانضواءهم تحت حمايته.

عندئذ لبّى ملك الفرنج دعوة الثوار المسلمين، ووافق على عروضهم، وبعث إليه سليمان بأسيره ثعلبة بن عبيد، قائد عبد الرحمن الداخل، عنوانًا للثقة والتحالف، فسُجن في إحدى القلاع الفرنسية، و كان تسليم هذا الأسير لملك الفرنج «شارلمان» ضربة موجعة لعبد الرحمن؛ لأنه كان من خاصته وأكابر وزرائه، فأصبح هذا الأسير رهينة قيّمة يُمكن لملك الفرنج استغلالها في الوقت المناسب لمساومة عبد الرحمن الداخل.

وكان سليمان بن يقظان زعيم أولئك الخوارج، يعمل مستقلاً لصالحه، فيرى هدفه الأول في تحطيم قرطبة وسيادتها، ويهدف إلى الاستقلال بما في يده تحت حماية ملك الفرنجة، ولكن ملك الفرنج كانت له أهداف أخرى، وهي تشجيع الثورات والخلاف بين المسلمين في أسبانيا.

وكان سليمان بن يقظان على اتصال بملك الفرنج منذ سنة (٧٦٠م)، منذ استيلائه على أربونه، واتصال الحدود الفرنجية بحدود أسبانيا المسلمة، ويسعى بهذا التحالف إلى تأييد استقلاله، وهكذا بدأت العلاقات بين الزعماء المسلمين – ممن خرجوا على حكومة قرطبة – وبين الفرنج الساعين للقضاء على دولة المسلمين في الأندلس، فكان الزعماء الخوارج كلّما حاولوا الثورة والاستقلال بحكم مدينة أو ولاية، اتّجهوا إلى الفرنج يستمدون عونهم ومناصرتهم، وكان الفرنج يُسارعون إلى تلبية هذه الدعوات، ويتخذونها ذريعة للتدخل في شئون

---

(١) (جـ٦، ص٥، وص٢١).

(٢) (جـ٤، ص١٢٤).

(٣) أخبار مجموعة (ص١١٢، ١١٣).

أسبانيا المسلمة، وإذكاء روح التفريق فيها، وسنرى كيف استطاع ملوك الفرنج تنفيذ هذه السياسة في فرصٍ عديدة متعاقبة.

وكانت الخلافة العباسية في المشرق غير بعيدة عن مسرح الأحداث هناك، فكانت تؤيد سياسة مناهضة لعبد الرحمن الداخل، ومناوأة بني أمية الذين استطاعوا أن ينتزعوا هذا القطر النائي من أقطار الخلافة، ويُقيموا فيه دولتهم على دعائم جديدة.

ويروي المؤرخون الإفرنج: إن پيبين والد شارلمان بعثَ في سنة (٧٦٥م) سفارة إلى بغداد وردَّ المنصور بإرسال سفراء إلى ملك الفرنج، وقدموا عليه بعد ذلك بثلاثة أعوام، وقضوا حينًا في البلاط الفرنجي في مدينة متز. وسار شارلمان ولد «پيبين» على سياسة أبيه، فكان بينه وبين الرشيد فيما بعد تلك المكاتبات والسفارات الشهيرة، وبذلك سنرى أنه في الوقت الذي كان يُعقد هذا التحالف بين ثوار الشمال - ابن يقظان وغيره - وبين ملك الفرنج شارلمان، كانت هناك بعض المحاولات التي تُبذل لنشر دعوة العباسيين في الأندلس، ومن ذلك نزول عبد الرحمن بن حبيب الفهري والمعروف بالصقلبي في تدمير، وقيامه بالدعوة الجادة والنشطة للخلافة العباسية في الأندلس[١].

وكان شارلمان (كارل) حينما استدعاه الخوارج المسلمون لغزو أسبانيا، قد انتهى من الحرب في سكسونية، وهزم القبائل الجرمانية الوثنية، وأخضع زعيمها القوي «ڤيدوكنت» وألجأه إلى الفرار، فجاءت دعوة الخوارج في وقت ملائم بالنسبة له؛ فانتظر حتى انتهى فصل الشتاء، ثم سار إلى الجنوب، وقضى أعياد الفصح في أكوتين على مقربة من «يوردو».

وفي فاتحة (ربيع سنة ٧٧٨م) جمع قواته المؤلفة من فرنج توستريا ومن

---

(١) «دولة الإسلام» د/ عنان. (ع١، ق١، ص١٧١).

الجرمان واللونبارد وفرق من برنيانيا واكوتين، واخترق ولاية أكوتين، وقرر أن يفتتح الغزوة الإسبانية توًا؛ حتى لا يفاجئه الشتاء، وقسّم جيشه الضخم إلى قسمين، عبر أحدهما جبال البرنية من الناحية الغربية، من الطريق الروماني القديم فوق مرتفعات « چان دي لابور » الشاهقة التي تُشرف على مفاوز ردنسفال الوعرة، على أن يجتمع الجيشان على ضفاف نهر الأيبرو أمام سرقسطة ، حيث يلتقي شارلمان بحلفائه المسلمين، وكان عبوره لجبال البرنية من « باب الشرزى » في شهر أبريل على الأرجح(١).

واخترق شارلمان بالد الشكنس أو نافار الحديثة، وحاصر عاصمتها بنبلونة، وهي قلعة النافاريين، واستولى عليها بعد قليل، وقد كان أولئك النافاريون دائمًا شعبة خاصة من « البشكنس » وكانت بنبلونة دائمًا مدينة البشكنس منذ أيام سترابون.

وقد كان البشكنس دائمًا يُحاولون الاحتفاظ باستقلالهم منذ أيام القوط، وكثيرًا ما لجأوا في سبيل ذلك إلى الخروج والعصيان، والامتناع بهضابهم وجبالهم الشاهقة، وكان هذا شأنهم حينما وفد شارلمان بقواته الضخمة، فقد كانوا يحرصون على هذا الاستقلال، ولا يودون الخضوع لأية جهة، لا إلى الفرنج، ولا إلى مملكة جليقية، ولا إلى إمارة قرطبة الإسلامية، ومن ثمّ فقد اضطُر شارلمان إلى محاصرة بنبلونة وأخذها بالعنف، وهنا تبرز هذه الحقيقة، وهي أن شارلمان يغزو بلاد البشكنس، كان يحارب أمة من النصارى، وهو في ذلك لم تكن تحدوه سوى بواعث السياسة والفتح، ولم تكن النزعة الدينية خاصية بارزة في تلك الغزوة.

أما الجيش الفرنجي الذي اخترق شرق البرنية، فقد كان يسير في منطقة يسيطر عليها الفرنج، مذ تقلّص عنها المسلمون وسلطانهم، منذ أيام « ببين » والد

(١) المصدر السابق (ص١٧٣).

شارلمان، ومن ثمّ فقد كان يخترق بلاداً صديقة ، يُرحب أهلها بمقدمه؛ أملاً في عونه وحمايته.

سار شارلمان بعد استيلائه على بنبلونة، ومع سليمان إلى سرقُسطة[١]، أما القسم الآخر من الجيش فقد اخترق في تلك الآونة منطقة جيرندة (جيرونة) وبرشلونة، واتجه غرباً إلى سرقُسطة حيث انضمّ إلى القوات التي يقودها شارلمان.

وكان شارلمان يعتقد حينما سار إلى سرقُسطة أنه سيلقى هناك حلفاءَهُ المسلمين على أُهبة الاستعداد لمعاونته، وتحقيق رغباته في الاستيلاء على المدينة الكبرى، ولكن الحوادث كانت تطورت عندئذ، ودبّ الخلاف بين الخوارج المسلمين، وكان الحسين بن يحيى الأنصاري والي سرقُسطة حليف سليمان منذ البداية، وكان عضده في مشروعه لاستدعاء الفرنج، وبالرغم من أنه لم يذهب إلى پادربون، ولا إلى بنبلونة، فقد كان موافقًا على الحلف الذي عقده سليمان بن يقظان مع شارلمان ملك الفرنج، وعلى العهود التي يقطعها له.

والظاهر أن الحسين نقم على سليمان موقف الصدارة والزعامة الذي اتّشح به إزاء الفرنج؛ فنشبت بينهما الخصومة، أو أنه خشي عاقبة التورط في حلف الفرنج؛ فعدل موقفه في آخر لحظة، حينما شعر بمسير الفرنج إلى مدينته – ويبدو أنه لم يكن في سرقسطة حينما أقبل إليها الجيش الفرنجي – وقيل أنه سبق إلى سرقُسطة قبل سليمان، وتحصّن بها.

فلمّا أشرف شارلمان مع حليفه سليمان على سرقُسطة، رفض الحسين أن يستقبله، ووجد المدينة محصنة متأهّبة للدفاع والمقاومة، فعبر نهر الإيبرو إلى الضفة الأخرى، وقدم إليه سليمان رهائن عدّ من الأعيان والأكابر، وفي مقدمتهم ثعلبة بن عبيد قائد عبد الرحمن، وكان أسيراً لديه حسبما تقدم، ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئًا لإقناع الحسين بفتح أبواب سرقُسطة، ولم يستطع شارلمان

---

(١) ابن الأثير (جـ٦، ص٥).

من جهة أخرى الاستيلاء عليها، وردّت المدينة المحصورة كل هجماته بشدّة، وعجز سليمان أن يُحقق شيئًا من وعوده في تسليم المدن، والحصون الواقعة في تلك المنطقة، ولم يشأ ملك الفرنج أن يخوض في تلك الوهاد والهضاب الصعبة معارك لم يتأهب لخوضها، وارتاب من جهة أخرى في نية سليمان وموقفه، فقبض عليه[١]، وارتدّ بجيشه نحو الشمال الشرقي في طريق العودة، وكان ذلك في شهر (يوليه سنة ٧٧٨م - شوال سنة ١٦١هـ).

ارتدّ سليمان على رأس قواته المجتمعة، ومعه سليمان أسيره، وعدد من الرهائن، وسار شمالاً نحو بلاد البشكنس، وكان الناڤاريون في تلك الأثناء قد جمعوا فلولهم، واعتزموا الدفاع عن حاضرتهم بنبلونة وعن حرياتهم التالدة، خصوصًا وقد شجعتهم وقفة سرقُسطة وصاحبها الحسين ضد الملك الفرنجي، وانضمّ إليهم كثير من المسلمين من أبناء الأنحاء المجاورة؛ للتعاون في دفع العدو المشترك، ولكن شارلمان هاجم بنبلونة بعنف، ولم تفعل بسالة الناڤاريين وحلفائهم المسلمين شيئًا، فتركوا المدينة، وتفرقوا في مختلف الأنحاء، واستولى شارلمان على بنبلونة للمرة الثانية، وهدم حصونها وأسوارها؛ حتى لا تعود إلى المقاومة إذا عاد إلى تلك الأنحاء، ولكي يُمهد لجيشه طريق العودة المأمونة إلى فرنسا.

وغادر شارلمان بنبلونة متجهًا إلى جبال البرنية من طريق هضاب رونسڤال المؤدية إلى باب الشزري.

يقول المؤرخون: «أن شارلمان لما أبعد من بلاد المسلمين واطمأنّ، هجم مطروح وعيشون ابنا سليمان بن يقظان مع أصحابهما؛ فاستنقذا أباهما ورجعا إلى سرقُسطة»[٢].

---

(١) المصدر السابق (جـ٦، ص٥).

(٢) ابن الأثير (جـ٢، ص٥).

ويبدو أن ولدي سليمان، حينما قبض شارلمان على أبيهما، عادا إلى الاتفاق مع الحسين بن يحيى على مقاومة الفرنج، وجمعا في الحال قوات أبيهما وأتباعه، وسارا بجيشهما في أثر ملك الفرنج يُحاولان مهاجمته وإنقاذ أبيهما من أسره، وكان شارلمان في ذلك الحين قد غادر بنبلونة بعد تخريبها، مُتجهًا صوب جبال البرنية؛ ليعبرها كرّة أخرى إلى فرنسا، وكان عبوره من نفس الطريق التي أتى منه، وهي ممر ردنسقال - الذي يُسمى بالعربية «باب شيزروا» أو باب الشزري - ويقع هذا الممر في طرف البرنية الغربي - والبرنية هي جبال تُسمى في الجغرافية العربية بجبال ألبرت أو البرتات - ويصفه الشريف الإدريسي وصفًا دقيقًا في كتابه «نزهة المشتاق» وصفًا يُبيّن لنا ممراته، والتي سيكون لها دور في هذه المعركة معركة شيزرا أو بردقنسال.

يقول الإدريسي:

«وطول هذا الجبل من الشمال إلى الجنوب مع سيرتقويس سبعة أيام، وهو جبل عالٍ جدًا صعب الصعود، وفيه أربعة أبواب فيها مضايق يدخلها الفارس بعد الفارس، وهذه الأبواب عراض لها مسافات، وهي منحرفة الطرق، وأحد هذه الأبواب الباب الذي في ناحية برشلونة، ويُسمى «برت جاقة» (جاكا)، والباب الثاني الذي يليه يُسمى «برت أشيرة» والباب الثالث يُسمى «برت شيزروا» وطوله في عرض الجبل خمسة وثلاثون ميلا - وهو الذي تُسمى به معركتنا هذه - والباب الرابع منها يُسمى «برت بيونه» ويتّصل بكل من برت منهامدن في الجهتين، فما يلي برت شيزروا مدينة بنبلونة، والباب المسمى جاقة عليه مدينة جاقة»[١].

وكلمة برت تعني: الباب أو الممر.

وكانت هذه الممرات تستعمل منذ عهد الرومان لاختراق البرنية من الشمال

(١) «نزهة المشتاق» للشريف الإدريسي (ص٦٥).

إلى الجنوب، وهي نفس الممرات التي كان يستعملها العرب للعبور إلى غاليس، وقد لبثت هذه الجبال الوعرة الشاهقة على ممر القرون حاجزاً منيعاً، يفصل بين شبه الجزيرة الأسبانية وبين غاليس، ولا يتاتى للغزاة عبوره إلاّ خلال هذه الممرات الشهيرة.

وفي مفاوز ردنسقال الوعرة، وتجاه ممر البرنية المسمى بهذا الاسم «باب شيزروا» وقعت المفاجأة الهائلة؛ ذلك أن الجيش الفرنجي ما كاد يبدأ عبور الجبال، حتى أشرف المسلمون بقيادة عيشون ومطروح على مؤخرته وهاجموه بشدة رائعة، وفصلوا عنه مؤخرته، وانتزعوا منها الأسلاب والأسرى، وفيهم سليمان بن يقظان، والمسلمون هم الذين دبروا هذا ا لهجوم المفاجئ على مؤخرة الجيش الفرنسي.

وقالت بعض روايات الغرب أن اليشكنس النصارى هم الذين قاموا بهذا الهجوم؛ انتقاماً لما أنزله الفرنج ببلادهم وعاصمتهم بنبلونة من العبث والتخريب.

وذُكر أن المسلمين والبشكنس في الهجوم – وقيل: «أن جيش شارلمان كان يتكون من خمسة آلاف فارس من ذوي الأسلحة الثقيلة وعدد مماثل من المشاة، وأن المؤخرة كانت تتكون من ألف فارس ومعها دواب الحمل، وأن الكمين وقع في الأماكن الصاعدة من الطريق المعبد، وقد تعاون بشكنس بنبلونة، والمسلمون ولاسيما مطروح وعيشون ولدي ابن يقظان (ابن الأعرابي)، وكان هذا التحالف ضرورياً؛ لأن المسلمين كانوا في حاجة إلى المعرفة الدقيقة لهذه الوهاد وهو ما يتيقنه البشكنس، وكان البشكنس بحاجة إلى مقدرة المسلمين في التنظيم العسكري، وهما معاً قد استطاعا أن يسحقا مؤخرة هذه الصفوف التي ارتجت لها سائر أسبانيا.

وقع هذا الهجوم الفجائي من المسلمين على مؤخرة الجيش الفرنجي بمعاونة

البشكنس، فاسفر عن أروع نتيجة يمكن تصورها؛ ذلك أن الفرنجة لم يُحسنوا الدفاع عن أنفسهم في تلك الشعاب الضيقة المنحدرة، وقد فصلت مؤخرة الجيش الفرنجي، وانتزعت منها الأسلاب والأمتعة وفي مقدمتها الخزانة الملكية، وكذلك الرهائن وفي مقدمتهم سليمان بن يقظان، ومزقت المؤخرة نفسها شر ممزق وهلك خلال المعركة الهائلة عدد عظيم من سادة الجيش الفرنجي وفرسانه، ولم تسمح المفاجأة المذهلة بأي عمل أو محاولة منظمة لإنقاذ الفرق المنكوبة، وكانت نكبة مروّعة لبث صداها يتردد مدى عصور في أمم الغرب والنصرانية[١].

وقد هلك في هذه ا لمعركة الكثير من سادة وأمراء الفرنج منهم إيجهارد رئيس الخاصة الملكية، وانسلم محافظ القصر، وهردولاند حاكم القصر البريتاني، وكثير من الرؤساء ورجال الخاصة والحاشية، وهردولاند بطل الأنشودة الشهيرة، التي نظمت فيما بعد عن هذه الموقعة، واستمدّت من أناشيد معاصرة لها، وأنشودة رولان هذه تنحرف في كثير من مناحيها إلى الأسطورة، وقد اتخذت الأسطورة من حوادث الموقعة موضوعًا لقصة حربية حماسية.

وقد أورد المؤرخون خلاصة هذه الأنشودة الشهيرة، فتقول نصّها:

غزا شارلمان أسبانيا، ولبث يُحارب فيها سبعة أعوام، حتى افتتح ثغورها ومدنها، ما عدا سرقسطة، وهي معقل الملك العربي مارسيل، وكان يُعسكر بجيشه بجوار قرطبة، حين جاءته رسل مارسيل يعرض عليه الطاعة، بشرط أن يجلو الفرنج عن أسبانيا، فعقد شارلمان مجلسًا من البارونات، ومنهم رولان ابن أخيه، وكان رولان يرى أن تستمر الحرب، ولكن فريقًا آخر من السادة برئاسة جانلون كونت مايانس، كان يرى الصلح والمهادنة، فغلب رأي هذا الفريق؛ لأن الفرنج سئموا الحرب والقتال، وأرسل جانلون إلى الملك مارسيل ليعقد معه شروط الهدنة، فأغراه مارسيل واستماله بالتحف والذخائر، واتفق معه على الغدر برد لان

(١) «دولة الإسلام» د/ عنان (ع١، ق١، ص١٨٠).

وفريقه، ثم عاد إلى شارلمان وزعم أن مارسيل قبل شروط الفرنج، وبذا قرر شارلمان الانسحاب، وتولى رولان قيادة المؤخرة.

وكان معه الأمراء الاثنا عشر، وزهرة الفروسية الفرنجية، ولما وصل الجيش إلى قمة الممرات الجبلية رأى أوليفر، جيشًا من العرب، يبلغ أربعمائة ألف مقاتل، فتضرع إلى رولان أن ينفخ في بوقه؛ ليدعو شارلمان إلى نجدته، فأبى رولان، وانقضّ الجيش المهاجم على مؤخرة الفرنج، ونشبت بينهما عدة معارك هائلة، واستمر رولان يأبى طلب النجدة، حتى مزّق جيشه، ولم يبقَ منه سوى ستين رجلاً، وعندئذ نفخ في بوقه يدعو شارلمان.

ثم قُتل بقية أصحابه، ولم يبقَ سوى رولان وأوليفر واثنين آخرين، ولما شعر العرب أن شارلمان سيرتد بجيشه لقتالهم، قرروا الانسحاب، وكان زملاء رولان الثلاثة قد قُتلوا، وأثخن رولان نفسه جراحًا حتى أشرف على الموت، ولكنه استطاع أن ينفخ في بوقه مرة أخرى قبل أن يموت، وأن يسمع صرخة شارلمان الحربية، وسمع شارلمان صوت البوق على بُعد مراحل عديد؛ فعاد مُسرعًا، وطارد جيش العدو وسحقه، ودفن الفرنج قتلاهم، وعُوقب جانلون الخائن أروع عقاب، وتُوفيت ألده، خطيبة رولان، حينما علمت بموته»[1].

وقد اتخذت أنشودة رولان أو أسطورة رولان الشهيرة مادتها من بعض وقائع هذه المعركة «معركة شيزورا - أو معركة ترنسقال».

وقد ظهرت لأول مرة في القرن الحادي عشر، بعد الموقعة بنحو ثلاثة قرون، ودُوّنت أولاً في بعض القصص اللاتينية، ثم دُوّنت بالنظم في ملحمة طويلة تبلغ أربعة آلاف بيت بعنوان «أنشودة رولان».

وظلت تعتبر على مدى العصور من أعظم الآثار الأدبية، ومن روائع الشعر،

---

(١) ابن الأثير (جـ٦، ص٥، ٢١)، وابن خلدون (جـ٤، ص١٢٤).

فقد كانت حوادثها مستقى خصباً لكثير من الكتاب والشعراء، ومستقى لقصص الفروسية والملاحم الحماسية المغرقة، التي تملأ فراغًا كبيرًا في الأدب الفرنجي في العصور الوسطى(١).

وقد لفت أنظار المؤرخين(٢) في حوادث الموقعة، أن شارلمان لم يُحاول بعد أن أفاق من الصدمة الأولى، أن يُعجل بالانتقام لنكبة جيشه وقتل فرسانه، وأن يعود فيطارد تلك العصابات التي تحدّته واجترأت عليه، سواء من المسلمين، أو من البشكنس، وقد علل المؤرخون ذلك بأن شارلمان شُغل قبل كل شيء بخطورة الأنباء التي وصلته عن تحرك السكسونيين، وهم ألدّ أعداء الفرنج وأخطرهم، فارتدّ أدراجه مُسرعًا؛ ليخوض حربًا جديدة معهم، استطالت قرابة سبع سنين، حتى تمت هزيمة زعيمهم «ڤيدوكت» نهائيًا، وأُرغم على التنصير في سنة (٧٨٥م).

ولم يبقَ بيدِ شارلمان، بعد أن أنقذ المسلمون رهائنهم، سوى ثعلبة بن عبيد قائد عبد الرحمن الداخل، وقد ظلّ فترة أخرى مُعتقلاً في باريس، حتى تمّت المفاوضة بشأنه، وأُطلق سراحه لقاء فدية كبيرة.

وقد اختتمت هذه الموقعة محاولات شارلمان غزو أسبانيا المسلمة والتدخل في شئونها بنكبته والقضاء على أفضل جنده.

وقد أسدلت هذه النكبة لسنوات طويلة ستارًا، بل سحابة على أمجاده الحربية، ورغم كل ذلك فلم تكن هذه المحاولة هي آخر محاولة من نوعها لشارلمان ملك الفرنج؛ وذلك لأن سياسة الفرنج ظلت بالرغم من هذه الصدمة المؤلمة، ترقب الأحداث وسيرها في الأندلس؛ علها تجد منفذًا أو ثغرة تنفذ منها أو تتخذها وسيلة لتحقيق أهدافها الكبرى، وهي القضاء على دولة المسلمين في أسبانيا (الأندلس).

---

(١) انظر تفاصيلها في «ابن خلدون» (جـ٤، ص١٢٤).

(٢) «دولة الإسلام» د/ عنان (ع١، ق١، ص١٨٣).

مواجهات جديدة في الجنوب

كانت أحداث الشمال تجري بين شارلمان وأعدائه، أما عبد الرحمن الأموي فقد ظلّ يُكافح الثورة في مختلف الأنحاء، وقد كانت ثورة البربر من أخطر الثورات التي واجهته، واستنفذ معظم قواه لأعوام متتالية، بيدَ أنه ما كاد يفرغ من سحق ثورة البربر حتى ظهر خطر جديد.

ثورة عبد الرحمن الفهري في شرق الأندلس:

عبد الرحمن بن حبيب أحد زعماء الفهرية، والمعروف بالصقلبي؛ نظراً لهيئته وشكله، فقد كان طويلاً أشقَرًا ذا عينين زرقاوين، وهذا الفهري غير عبد الرحمن ابن حبيب صاحب إفريقية المتغلب، الذي ذكر من قبل فقد قتل هذا المتغلب على إفريقية سنة (١٤٠هـ)، بعد أن خرج على طاعة بني العباس[١].

نعود إلى صاحبنا عبد الرحمن بن حبيب الفهري، فقد عبر البحر من إفريقية إلى الأندلس في قوة كبيرة، ونزل بساحل تدمير (مرسية) في شرق الأندلس، ودعا للخليفة العباسي سنة (١٦١هـ).

وكانت حركة هذا الصقلبي في تدمير كحركة العلاء بن مغيث من قبل في باجة والتي تحدّثنا عنها من قبل في الفتن والثورات، ولكن هذه الحركة، حركة عبد الرحمن بن حبيب الصقلبي كانت أشد خطراً؛ لأن الصقلبي سعى إلى التفاهم مع زعيم الثورة في الشمال سليمان بن يقظان، وتحالف معه، وكان ذلك التحالف بعد عبور الفرنج أسبانيا بقيادة شارلمان وموقعة (باب شيزورا - أو ترنسقال) التي تحدثنا عنها.

ولكن ابن يقظان لم يفِ بوعده في إمداده لقتال عبد الرحمن الأموي؛

---

(١) «تاريخ ابن خلدون» (جـ٤، ص١١١).

فغضب منه وسار لقتاله، فهزمه ابن يقظان في ظاهر برشلونة، فعاد إلى تدمير، ولبث مدى أشهر، يُنظم قواته وأُهبته، لكن عبد الرحمن الداخل لم ينتظر حتى يُهاجمه.

بادر عبد الرحمن بالمسير إليه بنفسه، وهاجمه بشدة، وأحرق سفنه الراسية بالساحل؛ حتى لا يجد سبيلاً إلى الفرار، فارتدّ الصقلبي بفلوله إلى جبال بلنسية، واستعصم بها، وهنا لجأ عبد الرحمن إلى سلاح الاغتيال مرة أُخرى، فدس على الصقلبي بعض أصدقائه، فاغتاله وحمل رأسه إليه، وانهارت بذلك دعوته وثورته سنة (١٦٢ - ١٦٣هـ) (٧٧٨ - ٧٧٩م).

ثورات الشمال:

قبل أن يسير عبد الرحمن إلى الشمال، وقعت عدة ثورات محلية، استطاع القضاء عليها وقمعها، فقد ثار دحية الغساني ببعض حصون البيرة (غرناطة) وكان دحية من أصدقاء عبد الرحمن وقادته، ولكنه نكث بعهده، ولحق بالفاطمي، فلمّا هلك الفاطمي، فرّ إلى البيرة وأعلن بها الثورة، فأرسل عبد الرحمن إليه جيشًا ضيَّقَ عليه الحصار، حتى أُخذ وقُتل.

وفي الجنوب ثار أيضًا إبراهيم بن شجرة بحصن مورور، فبعث إليه عبد الرحمن مولاه بدرًا، فهاجمه وقتله، وثار في طُليطلة القائد السلمي، وكان من خاصة عبد الرحمن، ثمّ فرَّ من قرطبة خشية بطشه به لأمور نقمها منه، والتفت حوله العناصر الخارجة في تلك الأنحاء، فسيّر إليه عبد الرحمن جيشًا قويًا بقيادة حبيب بن عبد الملك، فحاصره حينًا ثم قُتل، وثار في الجزيرة الخضراء واليها الرفامس، وعبر البحر إلى المشرق سنة (١٦٣ - ١٦٤هـ)[1].

وفي العام التالي تأهب عبد الرحمن لقمع الثورة في الشمال، وكان الخلاف

---

(١) «البيان المغرب» (جـ٢، ص٥٨).

قد وقع بين زعيمي الثورة بعد تفاهمهما على أثر نكبة الجيش الفرنجي في موقعة ترنسڤال (باب الشرري)، وتربص الحسين بن يحيى الأنصاري بزميله سليمان بن يقظان ودسّ عليه ذات يوم من قتله بالمسجد الجامع، وانفرد بالأمر في سرقُسْطة وما حولها.

فسار عبد الرحمن إلى سرقُسطة في جيش ضخم، وضيق الحصار عليها سنة (١٦٥هـ - ٧٨١م)، ووفد عليه عندئذ عيشون بن سليمان، وكان قد فرَّ عقب مقتل أبيه إلى أربونة، وانضمّ إليه بمن معه في مقاتلة الحسين، فلمّا اشتدّ الحصار بالحسين طلب الصلح، وقدّم ابنه سعيداً رهينة، فأجابه عبد الرحمن إلى مطلبه، وأقره واليًا على سرقُسطة، ثم تحوّل عن سرقُسطة إلى الشمال الشرقي، واخترق بلاد البشكنس (نافار)؛ ليُعاقب أهلها على عيثهم وعدوانهم، وغزا عاصمتها بنبلونة، وأثخن فيها وضرب قلاعها، وغزا قهرة، وبقيرة (ڤكيرا) واجتاح ولاية شرطانية، وأرغم أميرها على تقديم الطاعة وأداء الجزية، ثم عاد إلى قرطبة ظافراً بعد أن وطّد هيبة الحكومة المركزية في الشمال إلى حد ما، وألقى على النصارى درسًا يُذكرهم بأن الإسلام قد استرد منعته وسلطانه في أسبانيا، وكان سعيد بن الحسين قد فرَّ من معسكر الأمير أثناء الطريق.

ولما حلَّ عبد الرحمن بقرطبة توجّس شرًا من عيشون بن سليمان، وكان قد عاد في ركابه، فأمر به فقُتل، ولما رأى الحسين بن يحيى أن عبد الرحمن الداخل قد ارتدّ عنه، وعاد إليه ولده سالمًا، نكث بعهده وعاد إلى الثورة، وعاث فساداً في سرقُسطة وأعمالها، فاعتزم عبد الرحمن أن يعود إلى قتاله، وأن ينكل به وبأنصاره في تلك المرة، فبعث إلى الشمال جيشًا كثيفًا بقيادة غالب بن تمام بن علقمة، فخرج الحسين إلى لقائه، ووقعت بينهما معارك شديدة هُزم فيها الحسين، وأُسر ولده يحيى وعدّة من صحبه، فأُرسلوا إلى قرطبة، حيث أمر عبد الرحمن بإعدامهم، وامتنع الحسين بالمدينة، واستمرّ غالب في حصاره.

وفي العام التالي سنة (١٦٧هـ - ٧٨٣م) سار عبد الرحمن بنفسه إلى سرقُسطة، وحاصرها بشدّة، وضربها بالمجانيق ضربًا عنيفًا، حتى هُدِمَ أسوارها، واقتحمها عنوة، وقُبِضَ على الحسين وجماعة من صحبه، وقتلهم جميعًا، وشرّد كثيراً من أهلها، وفرَّ سعيد ولد الحسين، وعيّن عبد الرحمن قائده ثعلبة بن عبيد واليًا لسرقسطة، وكان قد افتداه من أسر الفرنج حسبما تقدم، وهدأت بذلك ريح الثورة في الشمال إلى حين[١].

أما شارلمان فقد شغل عن أسبانيا (الأندلس) بقتاله مع خصمه العنيد السكسوني «ڤيدوكنت»، واستمرت الحرب بينهما قرابة السبع سنوات، وانتهت بهزيمة ڤيدوكنت والسكسونيين، وخضوع ڤيدوكنت، وإرغامه على التنصر سنة (٧٨٥م).

ولكن عبد الرحمن رأى أن يتفاهم مع ملك الفرنجة، وأن يُؤثر صداقته؛ فبعث إليه يطلب عقد الصداقة معه، ويكاشفه برغبته في مصاهرته، فأجابه شارلمان إلى السلم ولم تتم المصاهرة[٢].

وفي بعض الروايات أن شارلمان هو الذي عرض على عبد الرحمن أن يُزوجه ابنته، فاعتذر عبد الرحمن باعتلال صحته، واستمر السلام معقودًا بين الزعيمين حتى وفاة عبد الرحمن.

مؤامرة ابن أخيه المغيرة وهذيل ولد الصميل بن حاتم:

وعندما عاد عبد الرحمن إلى قرطبة علم بخبر مؤامرة خطيرة دُبّرت للقضاء عليه بزعامة ابن أخيه المغيرة بن الوليد بن معاوية، وهذيل ولد الصميل بن حاتم، ولم تكن هذه أول مؤامرة من نوعها، فقد دُبرت قبل ذلك ببضعة أعوام سنة (١٦٣هـ) مؤامرة أخرى، وعلى رأسها أيضًا اثنان من أقطاب بني أُميَّة، الذين

---

(١) «البيان المغرب» (جـ٢، ص٥٩)، «ابن الأثير» (جـ٦، ص٢٢).

(٢) «نفح الطيب» للمقرئ (جـ١، ص١٥٥).

وفدوا على الأندلس حينما تألق طالع عبد الرحمن، وعبيد الله بن أبان بن معاوية، وهو ابن أخيه، وذلك بمعاونة أبي عثمان كبير الدولة، وكان عبد الرحمن قد تمّ له الأمر، ويسعى إلى استقدام فلّ بني أمية من المنفى، ويدعوهم إليه؛ ليكونوا له عونًا وعُصبة، ويُظلهم برعايته، ويُغدق عليهم من نعمه، ويختارهم لمختلف المناصب، ولكن روحًا سيئًا من الحقد والحسد، كان يُحفز أولئك الأقارب لمناوأة ذلك الذي هيّأت له الأقدار أن يفوز دونهم بتراث بني أمية في الأندلس؛ فائتمروا به غير مرة، وشجّعهم على ذلك بعض الخوارج الناقمين والمنافسين الطامعين، ولكن عبد الرحمن كان يكتشف الخطر قبل وقوعه، ويسحقه بكل ما أوتي من شدة وصرامة، فلم يحجم حينما وقف على المؤامرة الأولى عن قتل ابن عمه عبد السلام اليزيدي، وعبيد الله بن أخيه إبان، وعفا عن أبي عثمان؛ لمكانته وسابق صنيعه، ولم يُحجم حينما وقف على المؤامرة الثانية، عن قتل المغيرة بن أخيه الوليد، وزميله هذيل بن الصميل، ومن معهما، ونفى أخاه الوليد وأسرته إلى المغرب.

وقد ذكر مؤرخوا الأندلس - بل بعضهم - عن بعض موالي عبد الرحمن الداخل، أنه دخل عليه أثناء قتله المغيرة بن معاوية ابن أخيه، وهو مطرق شديد الغم فرفع رأسه وقال:

«ما عجبي إلاّ من هؤلاء القوم (يقصد اهله بني أمية) سعينا فيما يضجعهم في مهاد الأمان والنعمة وخاطرنا بحياتنا، حتى إذا بلغنا منه إلى مطلوبنا، ويسّر الله تعالى أسبابه، أقبلوا علينا بالسيوف، ولمّا آويناهم وشاركناهم فيما أفردنا الله تعالى به، حتى أمنوا وردت عليهم أخلاف النعم، هزوا أعطافهم، وشمخوا بآنافهم، وسموا إلى العظمى، فنازعونا فيما منحه الله تعالى، فخذلهم الله بكفرهم النعم، إذ أطلعنا على عوراتهم، فعاجلناهم قبل أن يعاجلونا، وأدى ذلك

إلى أن ساء ظننا في البريء منهم، وساء ظنه فينا، وصار يتوقع من تغيرنا عليه ما نتوقع نحن منه»[١].

إن هذا الموقف يجعلنا نُشفق على هذا الصقر الأموي مما حلّ به من محن وصعاب؛ فقد امتحن وصُدم في أهله الذين أعادهم للمجد بمخاطراته وجرأته، وجعل خوف بني أمية أمن، وجوعهم شبع وعطشهم ري بفضل الله، وبجهد شاق منه، وها هو ينقطر دمًا من بين حروف كلماته؛ فلعلّ هذا الذي اضطره لقتل ابن أخيه المتآمر على دولة بني أمية بعد أن أحياها الله من العدم.

نعود إلى أحداث الفتنة، فقد فرّ في ذلك الوقت أبو الأسود محمد بن يوسف الفهري من سجنه، ورفع لواء الثورة في طليطلة، وكان محمد سجينًا في قرطبة منذ مقتل أبيه، ثم فراره وأسره ثانية في حوادث طليطلة سنة (١٤٢هـ) كما قدمنا، وتظاهر محمد عندئذ بالعمى، وأتقن حيلته، حتى جازت على جميع الموكلين بسجنه، وأشفق عبد الرحمن عليه، فأبقاه ولم يقتله كأخيه، وأنفق في أسره أعوامًا طويلة حتى أهمل شأنه، ولم يعد يكترث أحدٌ به، وعرف بالأعمى، ثم سنحت له فرصة الفرار على يد بعض مواليه المتصلين به؛ ففرّ من سجنه الواقع على النهر الكبير، وجاز النهر سباحة، ولحق بطليطلة سنة (١٦٨هـ) وأعلن الثورة، والتفتْ حوله الجموع الكبيرة من الفهرية والقيسية، وأتباعهم من عناصر الخروج للثورة، وسار في قواته صوب جيان.

خرج عبد الرحمن لقتاله، ووقعت بينهما معارك عديدة، كان النصر فيها لعبد الرحمن، ولكن أبا الأسود لبث حينًا محتفظًا بمراكزه وقواته، ثم نشبت بينهما على مقربة من قسطلونة في الوادي الأحمر، بمكان يعرف بمخاضة الفتح، معركة شديدة حاسمة، ولجأ عبد الرحمن إلى الخديعة؛ فاتفق مع بعض قادة أبي الأسود على التقاعد، والغدر؛ فهُزم أبو الأسود هزيمة شديدة، وقُتل من جنده

(١) «نفح الطيب» للمقري (جـ٢، ص٧٢، ص٧٣).

عدّة آلاف، وغرق عدد كبير في النهر، وطارده عبد الرحمن حتى قلعة رياح، وفرّق جيشه كل ممزق (ربيع الأول سنة ١٦٨هـ - ٧٨٤م).

ولكن محمداً لم يخضع ولم يهنْ عزمه؛ فارتدّ إلى جهة الغرب، ونزل بقورية، وعاد يحشد قواته؛ لاستئناف القتال، وقويَ أمره وبسط سلطانه على تلك الأنحاء، فسار عبد الرحمن لقتاله ثانية، وهاجم قورية، ومزّق شمل قواته سنة (١٦٩ هـ - ٧٨٥م)، ففرّ في نفر من صحبه إلى بعض قرى طليطلة، وهنالك توفيَ لأشهرٍ قلائل سنة (١٧٠هـ)، فقام مكانه أخوه أبو القاسم بن يوسف، واقترن بزوجته، وعاد يُنظم الثورة في طليطلة، فسار عبد الرحمن لقتاله قبل أن يستفحل أمره، ولم يرَ أبو القاسم بدّاً من الخضوع والتماس الصلح والعفو، فأجابه الأمير إلى ملتمسه، وصحِبَه معه إلى قرطبة، وردَّ إليه بعض أموال أسرته[1].

وطُويَتْ بذلك آخر مرحلة في ثورة الفهرية، بل كانت آخر ثورة قام بقمعها عبد الرحمن، ولم يعشْ بعدها سوى عدّة أشهر.

كانت حياة عبد الرحمن - التي امتدّت ثلاثة وثلاثين عامًا - حياةً حافلة بالكفاح المستمر، وكانت مغامرة جريئة صنعت هذا المجد، فمن تكون هذه الشخصية الباهرة.

(١) «البيان المغرب» (جـ٢، ص٥٢، ٥٩، ٦٠). «الحلة السيراء» لابن باز (ص٥٦، ٥٧).

من يكون هذا الرجل؟

لم يكن في ذهن أحد مجرد توقّع أن الدولة الأموية بعد سقوطها المروّع بالمشرق الإسلامي أن تنهض من جديد، وفي أرض جديدة، فقد امتلأ مشهد السقوط بالمآسي المروّعة التي تحدّثت عنها مصادر التاريخ كثيراً.

ولكن اسم هذه الدولة سطع من جديد في أرض جديدة علا فيها صوت الإسلام والمسلمين من جديد، وكان وراء هذا الإنجاز الباهر والعمل الرائع شخصية فريدة، من أعظم شخصيات الحرب والسياسة؛ فهذا الرجل عبد الرحمن الأموي، أو قُلْ: عبد الرحمن الداخل، أو سمّه صقر قريش، فهذه أسماؤه المتداولة.

هذا الرجل تمتع بذكاء حاد، وعبقرية ممتازة، وصفات نادرة، حتى ذكر المؤرخون [١] أنه كان قرين جده العظيم معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، يُنشئ دولة مثلما أنشأ، ولكن في ظروف أسوأ من ظروفه، ويهزم الخطوب والحوادث، ويسحق الخصوم في كل ميدان، فيصل إلى غايته بأي الوسائل، ولربما يستغرب القارئ كلمة بأي الوسائل، ولكن سنعرف بعد قليل كيف يكون له ذلك.

الصرامة والعنف:

لقد كانت المحنة الهائلة والمصيبة المروّعة التي نزلت بأسرته، والظروف العصيبة التي يواجهها، والخصومات والأحقاد المستعرة التي نزلت بأسرته – كما ذكرنا – تدفعه دفعًا إلى ذروة التطرف، وتدفعه دفعًا إلى التذرع بأشد الوسائل، فتراه وافر العزم، جريئًا مغامرًا، لا يعرف مصطلح الخطر القادم والخطورة المتوقعة، بل كان يحتقر الخوف والتردد، كان عبد الرحمن داهية يقرن وافر الدهاء بالنزوع إلى الخيانة والغدر والفتك أحيانًا، وكان حازمًا يقرن الكثير من الحزم والصرامة،

---

(١) «دولة الإسلام» د/ عنان (ع١ ق١، ص١٩٣).

باللجوء إلى القمع الذريع، ويذهب إلى الانتقام في حدود مروعة من القسوة.

ومع ذلك فقد كان عبد الرحمن وفيًا يحفظ العهد والصنيعة لمن أخلص له، وإن لم يتراجع لأقل شك أو ريب أو بادرة عن الفتك بأعز أصدقائه، وأقرب الناس إليه.

وقد رأينا ولاحظنا هذه الصفات والخلال في شخصية عبد الرحمن واضحة بارزة، في كثير مما عرضنا من حوادث حياته ونضاله.

فها هو مراراً وتكراراً يلجأ إلى الحيلة؛ للتخلص من خصومه، وها هو في مواطن كثيرة يزهق الأرواح دون تردد، لكل من وقع من خصومه أو من ولدهم وصحبهم الأبرياء!!

ولقد ذهب هذا الرجل في صرامته وقسوته إلى البطش بكثير من أصدقائه الذين آزروه يوم مقدمه، شريداً لا عصبة له، وقاتلوا معه وقادوه إلى الظفر والنصر والحكم أيضًا، وكان قد أولاهم في البداية ثقته وجعلهم عماد دولته، ومن هؤلاء بدر مولاه الذي جاب معه القفَر وخاض الغمار، وكان مثالاً للشجاعة والدهاء وبُعد النظر، فإنه قَدَّر في البداية خلاله وكفايته وولاَّه القيادة واختصه بأسمى المناصب والمهام، ولكنه تغيّر عليه في أواخر عهده، لما أبداه من التذمر وعدم الرضى، ولما وجهه إليه من عتاب خشن تجاوز فيه حد اللياقة، فنكبه وجرّده من مناصبه وأمواله، وشرّده عن قرطبة إلى قاصية الثغر، ولم يستمع إلى تضرعه حتى مات في فقر وضعة[1].

ومن هؤلاء الأصدقاء أبو عثمان كبير أنصاره، وأول من تلقاه وآواه يوم مقدمه؛ فإنه جعله كبير دولته، فلما توطّد أمره جرّده من نفوذه، ولما وقعت المؤامرة التي دبّرها بعض الوافدين من بني أمية، واتّهم أبو عثمان بالاشتراك في تدبيرها شكّ به وأخذته الريبة منه، ولم ينقذه من بطشه إلاّ عظم صنيعه لديه.

---

(١) «الإحاطة» لابن الخطيب (جـ١، ٤٥٣٢). «نفح الطيب» (جـ٢ ص٦٩، ص٧١).

ولما ثار ابن أخت أبي عثمان في بعض حصون البيرة، لم يتردد عبد الرحمن في قتله حين ظفر به.

وكذا تغيّر عبد الرحمن على عبد عبد الله بن خالد صهر أبي عثمان وزميله في مؤازرة عبد الرحمن ونصرته، وكان من وزرائه، ثم اعتزل المنصب، وتوارى لَمّا رأى من غدر عبد الرحمن بزعيم اليمنية أبي الصباح، وكان أبو الصباح هو الذي جمع كلمة اليمنية كلها في أشبيلية حول عبد الرحمن وقاتل معه بصحبته، ثم انحرف عنه لأمور نقمها منه، فاستدرجه عبد الرحمن إلى قرطبة وفتك به في نفس مجلسه بالقصر، ناكثًا لعهوده - كما ذكرنا - [١].

وقد ذهب عبد الرحمن في ذلك مذهبًا بعيدًا حتى أسرته الأموية قد فتك بذويه وخاصة أسرته، حينما علم أنهم يأتمرون به، فقتل ابني أخيه عبيد الله بن أبان والمغيرة بن الوليد، وابن عمه عبد السلام اليزيدي - كما ذكرنا - .

الغايات والأساليب:

مما سبق نخلص إلى أن عبد الرحمن كان يلجأ في تحقيق غاياته إلى أساليب ووسائل مختلفة، فكان طاغية مسرفًا في البطش والسفك، ميكافيليًا بكل معاني الكلمة.. (نسبة إلى ميكافيللي، صاحب المذهب السياسي المشهور، والذي يخلص إلى القول أن على الأمير أن يتذرع في تحقيق الغاية بأي الوسائل، ومنها الغدر والخيانة والسفك وكل ما إليها).

ولكن كل هذه الصفات المثيرة التي كان يدفع عبد الرحمن لاستخدامها ويحفزها ويزكيها في نفسه هو الخطر الداهم، كان كل ذلك عنوان قوته ووسيلة ظفره، وعن ذلك يقول رينهرت دوزي في كتابه المسلمون في الأندلس[٢]:

«لقد دفع عبد الرحمن ثمن ظفره غاليًا، ذلك الطاغية الغادر الصارم المنتقم،

---

(١) «نفح الطيب» (جـ٢ ص٦٧، ٧١).

(٢) «المسلمون في الأندلس» رينهرت دوزي، ترجمة د/ حسن حبشي - هيئة الكتاب - مصر.

الذي لا تأخذه رأفة، ولم يبقَ زعيم عربي أو بربريّ، يجرؤ على مواجهته صراحة، ولكن الجميع كانوا يلعنونه خفية، ولم يكُ ثمّة رجل يرغب في خدمته».

ثم يقول:

«كان همّ عبد الرحمن الدائم أن يذل العرب والبربر إلى الطاعة، وأن يرغمهم على التعود على النظام والسلام، وقد لجأ في تحقيق هذه الغاية إلى جميع الوسائل، التي لجأ إليها ملوك القرن الخامس عشر لسحق الإقطاع، بيدَ أنه كان مصيراً محزنًا، ذلك الذي دفع القدر إليه أسبانية، وكانت مهمة محزنة تلك التي كان على خلفاء عبد الرحمن أن يضطلعوا بها؛ ذلك أن الطريق الذي رسمه لهم مؤسس الأسرة، كان طريق الطغيان يؤيده السيف، ولكن من الحق أن نقول أن ملكًا لا يستطيع أن يحكم العرب والبربر بغير هذه الوسيلة، وإذا كان العنف والطغيان سمة في ناحية، ففي الناحية الأخرى يوجد الاضطراب والفوضى»[1].

(١) المصدر السابق (ص٢٤٥).

الخلال والصفات الباهرة

برغم ما ذكرنا من صورة قاتمة - ربما نوعًا ما - عن شخصية عبد الرحمن، فإننا نتجه إلى جوانب عظيمة ومضيئة في حياته، وقد أجمل المقَّري معالم إيجابية في شخصيته فقال:

« كان عبد الرحمن راجح الحلم، فاسح العلم، ثاقب الفهم، كثير الحزم، نافذ العزم، بريئًا من العجز، سريع النهضة في طلب الخارجين عليه، متّصل الحركة، لا يخلد إلى راحة، ولا يسكن إلى دعة، ولا يَكِل الأمور إلى غيره، ثم لا ينفرد في إبرامها برأيه، شجاعًا مقدامًا، بعيد الغور، شديد الحذر، قليل الطمأنينة، بليغًا، مفوهًا شاعرًا، مُحسنًا، سمحًا، سخيًا، طلق اللسان »[١].

كذلك صوّر ابن حيان الجوانب العظيمة في شخصية عبد الرحمن الداخل، وكان تصويره مجملاً، ربما نلحظه ونحن نتابع الأحداث التي مرت به في حياته.

وقد شبّه ابن حيان عبد الرحمن الداخل بأبي جعفر المنصور في قوة الشكيمة، ومضاء العزيمة، وفي القسوة والصرامة والاجتراء على الكبائر[٢].

ويقول المؤرخون: « وإذا كانت هذه الصفات والخلال القوية المثيرة معًا لا تحمل على الحب، فإنها تحمل على الإعجاب بلا ريب، بل إن المتأمل ليشعر بعطف خاص نحو هذه الشخصية الفريدة، ويرجع ذلك بلا ريب إلى تلك الحياة المؤثرة، التي خاض عبد الرحمن غمارها، وتلك المحن الأليمة التي نزلت بأُسرته، وتلك الجهود الفادحة التي بذلها لاسترداد حقه وحق أُسرته في الحياة والرياسة، وكانت هذه الحياة المؤثرة وما انتهت إليه من النتائج الباهرة، تحمل ألد خصوم

---

(١) « نفح الطيب » للمقري (جـ٢، ص٦٧).

(٢) المصدر السابق (جـ١، ص١٥٦).

عبد الرحمن على احترامه والإعجاب به، حتى لقد سماه أبو جعفر المنصور «صقر قريش».

فقد ذُكِرَ أنّ أبا جعفر المنصور قال يومًا لبعض جلسائه: أخبروني مَنْ صَقْر قريش من الملوك؟

قالوا: ذاك أمير المؤمنين الذي راضَ الملوك، وسكّن الزلازل، وأباد الأعداء، وحسم الداء. (يقصدونه هو).

قال: ما قلتم شيئًا! وما صنعتم شيئًا.

قالوا: فمعاوية؟ قال: لا.

قالوا: فعبد الملك بن مروان.

قال: ما قلتم شيئًا!، وما صنعتم شيئًا!

قالوا: يا أمير المؤمنين، فمن هو؟

قال: صقر قريش عبد الرحمن بن معاوية الذي عبر البحار، وقطع القِفَر، ودخل بلدًا أعجميًا، منفردًا بنفسه، فمصَّر الأمصار، وجنَّد الأجناد، ودوَّن الدواوين، وأقام ملكًا عظيمًا بعد انقطاعه، بحسن تدبيره، وشدّة شكيمته.

إن معاوية نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان، وذللا له صعبه، وعبد الملك ببيعة أُبرم عقدها، وأمير المؤمنين بطلب عترته، واجتماع شيعته، وعبد الرحمن منفرد بنفسه، مستصحب لغرمه، وطّد الخلافة بالأندلس، وانتتح الثغور، وقتل المارقين، وأذلّ الجبابرة الثائرين.

فقال الجميع: صدقت والله يا أمير المؤمنين[1].

وكان عبد الرحمن يدعو للخليفة المنصور، ثم قطعه، وكان - رحمه الله - يُلقب نفسه بالأمير، وعليه جرى بنوه من بعده، فلم يُدْعَ أحدٌ منهم بأمير

(١) «البيان المغرب» لابن عذارى (٢ / ٦٠).

المؤمنين[١]؛ تعظيمًا لأمر الخلافة ومكانتها، ويُلقب بابن الخلائف، وفي ذلك يقول المقرئ: تأدبًا مع الخلافة بمقر الإسلام، ومنتدى العرب[٢].

وقد وصف المؤرخون شخص عبد الرحمن فقالوا:

«بانه كان مديد القامة، نحيف القوام، أعور، أخشم، له ضفيرتان، أصهب (احمرار الشعر)، خفيف العارضين، له خال في وجهه»[٣].

(١) «تاريخ ابن خلدون» (جـ٤، ص١٥٦).

(٢) «نفح الطيب» (١/ ٣٣٠).

(٣) جاء هذا الوصف في «نفح الطيب» (جـ١، ص١٥٦)، وابن الأثير (جـ٦ ص٣٧).

الإمارة والدولة

ازدهرت الأندلس في عهد عبد الرحمن الداخل، فقد كانت الفتن تلتهمها، وتزري بماضيها ومستقبلها، غير أن عبد الرحمن دخلها بعزيمة لا تعرف الكلل، وهمّة عالية لا تعرف الملل، فأعطاها من عزيمته، ومنحها من همّته، فوقف في الفتن والثورات وقفة الأبطال، وصبر للمحن صبر المغاوير، حتى أعلى عرشها عن جداره، وملك سلطانها غير مُنازع، واستحقَّ بذلك ما وصفه به الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور، حين يقول:

«لا تعجبوا لامتداد أمرنا مع طول مراسه وقوة أسبابه؛ فالشأن في فتى قريش الأحوذي الفذّ في جميع شؤونه، وعدمه لأهله ونسبه، وتسليه عن جميع ذلك ببعد مرمى همّته، ومضاء عزيمته، حتى قذف نفسه في لجج المهالك؛ لابتناء مجده، فاقتحم جزيرة شاسعة المحل، نائية المطمع، عصبية الجند، ضرب بين جندها بخصوصيته، وقمع بعضهم ببعض بقوة حيلته، واستمال قلوب رعيتها بقضية سياسته، حتى انقاد له عصيُّهم، وذلَّ لَهُ أبيهم؛ فاستولى فيها على أريكته، مَلِكًا على قطعته، قاهرًا لأعدائه، حاميًا لذماره، مانعًا لحوزته، خالطًا الرغبة إليه بالرهبة منه، إنّ ذلك لهو الفتى كل الفتى، لا يكذب مادحه»[1].

وقد كان عبد الرحمن الداخل والمنصور صنوين؛ فقد جعل ابن حيان عبد الرحمن الداخل وأبا جعفر المنصور يتماثلان في الرجولة والصرامة والاستيلاء والاجتراء على الكبائر والقساوة، وأن أم كل منهما بربرية، وأن كلاً منهما قتل ابن أخيه؛ إذْ قتل أبو جعفر ابن السفاح، وقتل عبد الرحمن ابن أخيه المغيرة.

وكان عبد الرحمن - رحمه الله - يُحافظ على إمارته، فيهتم برونقها، ويحفظ أبهتها في نفسه وفيمن حوله، لا يسمح لأحد أن يرفع صوته، ولا أن

(١) «نفح الطيب» المقرئ (١/ ٣٣١).

يصخب في المكان الذي يعقد فيه مجلس الإمارة، فقد رويَ أنه لما حقق النصر على الحسين بن يحيى، وأقبل عليه الناس يُهنئونه، فهنّاه أحد الجند بصوت عالٍ فقال: «والله لولا أنّ هذا اليوم يومٌ أسبغ عليَّ وهو فوقي، فأوجب عليَّ ذلك أن أُنعم فيه على من هو دوني، لأُصْلِينَّكَ ما تعرضت له من سوء النكال، من تكون حتى تُقبل مُهنئًا رافعًا صوتك غير متلجلجٍ ولا مهيب لمكان الإمارة، ولا عارف بقيمتها، حتى كأنك تُخاطب أباك أو أخاك؟ وإنّ جهلك يحملك على العود لمثلها، فلا تجد مثل هذا الشافع في مثلها من العقوبة.

فقال الرجل: ولعلّ فتوحات الأمير، يقترن اتصالها باتصال جهلي وذنوبي، فتشفع لي متى أتيت بمثل هذه الزلة.

عندئذٍ تهلّل وجه الأمير وقال: ليس هذا باعتذار جاهل.

ثم قال: نبهونا على أنفسكم، إذا لم تجدوا من ينبهنا عليها. ورفع مرتبه وزاد في عطائه»[١].

وكان عبد الرحمن يُحاول قدر المستطاع أن يجد نفسه في زيادة منزلته، ورفعه شأنه، ولن يكون ذلك إلاّ باستكمال عقله واستجماع همته، حتى أنه قُدِّمَ إليه الخمر أول دخوله الأندلس، فقال: «إني محتاج إلى ما يزيد عقلي، لا لما ينقصه»، وامتنع عن شربها، ثم قُدِّمَتْ له جارية جميلة كهدية، فنظر إليها، وقال: إن هذه من القلب والعين بمكان، وإن أنا اشتغلت عنها بهمّتي فيما أطلبه ظلمتها، وإن اشتغلت بها عمّا أطلبه ظلمت همّتي، ولا حاجة لي بها الآن، وردها على صاحبها[٢].

ولما كثُرَتْ مؤامرات العرب كما عرضنا من قبل، واستشرى شرهم، أصبحوا طامعين فيما ليس لهم حق فيه، وأكثروا خروجهم وتمردهم، استراب بهم، فأخذ

(١) «نفح الطيب» (٣/٤١).

(٢) المصدر السابق (٣/٤٢).

يتخلى عنهم، ويستبدلهم بالموالي واصطناع القبائل من غيرهم[١]، واستكثر منهم حتى اجتمع حوله أربعون ألفًا.

فلما أوقع عبد الرحمن الداخل اليمانية الذين خرجوا في طلب ثأر رئيسهم أبي الصباح اليحصبي، وأكثر القتل فيهم، استوحش من العرب قاطبة، وعلم أنهم على دَغَل وحقد، فانحرف عنهم إلى اتخاذ المماليك، فوضع يده في الابتياع، فابتاع موالي الناس بكل ناحية واعتضد أيضًا بالبربر، ووجه عنهم إلى بر العدوة، فأحسن لمن وفد إليه إحسانًا، رغّب من خلفه في المتابعة والانضمام إليه من هؤلاء البربر.

وقال ابن حيان: «واستكثر منهم (البربر) ومن العبيد، فاتخذ أربعين ألف رجل، صار بهم غالبًا على أهل الأندلس من العرب، فاستقامت مملكته وتوطّدت»[٢].

تلقى عبد الرحمن تراث الإمارة كما خلفه يوسف بن عبد الرحمن الفهري، والتي كانت الأندلس حتى ولاية يوسف ولاية من ولايات الخلافة الأموية. ولم يُنشئ - رغم كونه سليل بني أُمية - لنفسه شيئًا جديدًا من رسوم الملك، وتُلقبه الرواية الإسلامية بالأمير، وأحيانًا بالإمام[٣]، ويُلقب أيضًا بصاحب الأندلس[٤].

ويُعرف عبد الرحمن الداخل لأنه أول من دخل من أمراء بني أمية وحكمها، ويُعرف أيضًا بعبد الرحمن الأول؛ لأنه أول أمراء ثلاثة من بني أُميّة سمُّوا بهذا الاسم حكموا الأندلس، هم عبد الرحمن الداخل، وحفيده عبد الرحمن الأوسط (ابن الحكم)، ثم عبد الرحمن الناصر.

وكانت دعوة بني العباس قد وصلت إلى الأندلس حين مقدم عبد الرحمن،

(١) تاريخ ابن خلدون (٤/١٥٨).

(٢) «نفح الطيب» (جـ٣، ص٣٦).

(٣) «الروض المعطار» (ص١٨٦)، ابن خلدون (جـ٤، ص١٢٢).

(٤) «البيان المغرب» (جـ٢. ص٥٠)، وابن الأثير (جـ٦، ص٣٧). ١٤٨.

وذاعت في منابرها، ودعى في الخطبة لبني العباس في كثير من النواحي، ثم دعى لهم في قرطبة ذاتها، ودعى عبد الرحمن الداخل نفسه لأبي جعفر المنصور عدّة أشهر، و كان ذلك رغم غرابته وتناقضه عملاً من أعمال السياسة، ولكن جماعة من بني أمية الذين وفدوا على الأندلس، وعلى رأسهم عبد الملك المرواني، اعترضوا على هذا التصرف، ونوهوا بما أثم به بنو العباس في حق بني أمية، ومازالوا بعبد الرحمن حتى قرر قطع ذكر بني العباس من الخطبة سنة (١٣٩هـ)، فقطعت من سائر منابر الأندلس[١].

ولم يتخذ عبد الرحمن الداخل سمة الخلافة، أو يُسمي نفسه خليفة، رغم كونه سليل رجال الخلافة، ويرجع ذلك إلى اعتبارات دينية وسياسية، تحدّث عنها ابن خلدون فقال:

«إن بني أمية بالأندلس، تلقبوا كسلفهم مع ما علموه من أنفسهم من القصور عن ذلك، بالقصور عن ملك الحجاز أصل العرب والملة، والبعد عن دار الخلافة التي هي مركز العصبية، وأنهم إنما منعوا بإمارة بعيدة أنفسهم عن مهالك بني العباس»[٢].

ويقول في موضع آخر: «إن عبد الرحمن لم يتخذ سمة الخلافة تأدبًا منه في حق الخلافة في مقر الإسلام ومنتدى العرب».

ويقول المسعودي في «مروج الذهب»: «إن الخلافة لم يكن يستحقها عند بني أُمية إلاّ من كان مالكًا للحرمين؛ ولذلك سموا بالخلائف، حتى بعد أن تَسمّوا بالخلافة ولم يخاطبوا بالخلفاء»[٣].

---

(١) «الحلة السيراء» ابن الأبار (ص٣٣).

(٢) ابن خلدون (جـ٤، ص١٢٢).

(٣) «مروج الذهب» للمسعودي (جـ١، ص٧٨).